الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة التربية والتعليم المركزية ، الإدارة العامة للعلاقات الثقافية

صحيفة
معهد الدراسات الإسلامية
في مدريد

المجلد السادس ١٣٧٨ - ١٩٥٨ العدد ١ - ٢

أبو البقـــاء الرُّندى

وكتابه "الوافى فى نظـم القوافى"

طارت شهرة أبى البقاء الرندى بقصيدته النونية المؤثرة فى رثاء الأندلس ، التى أجمع النقاد على أنها خير ما قيل فى البكاء على ذلك الفردوس المفقود ، على كثرة ما قيل فى البكاء عليه . والعجيب هو أن تحتجب ترجمة أبى البقاء من كتب الأدب وتاريخه برغم هذه الشهرة الطائرة حتى لقد وقع الخلاف فى تاريخه وعصره بل فى اسمه وكنيته ولم يوجد من يحقق ذلك إلى الآن . وإنما يوجد من يذكره وقصيدته وينوه بهذه الدرة اليتيمة ثم يمر مر الكرام بكل ما عدا ذلك مما يلقى ضوءاً كاشفاً على حياة هذه الشخصية الأدبية الفريدة ، ولعل السبب فى ذلك هو أن صاحب نفح الطيب ، المعلمة الأندلسية الكبرى ، سكت عن ترجمته ، فلم يتح للباحثين الوقوف عليها بعد ذلك فى مصدر آخر فتضامنوا مع علامتنا المقرى فى هذا السكوت المزرى .

وإذا كان الكلام من فضة والسكوت من ذهب كما جاء فى الحكمة ، فقد تنعكس القضية فى بعض الأحيان وذلك هو ما وقع فى توهيم صديقنا الأستاذ البحاثة الكبير السيد محمد عبد الله عنان للعلامة المقرى فى شأن صاحبنا أبى البقاء وعصره . . والأستاذ عنان هو الوحيد من المؤرخين الذين تعرضوا لتحقيق تاريخ هذا الشاعر وخرجوا عن عهدة ذلك السكوت المزرى . وقد أصاب فى تحديد عصره وتاريخ حياته وإن لم يصب فيما نسبه للمقرى من وهم فى هذا الصدد .

تحدث الأستاذ عنان فى كتابه القيم « نهاية الأندلس » فى الكتاب الأول منه عن ظروف قيام مملكة غرناطة والأحداث المؤسفة التى لابست تلك الظروف ونتج عنها سقوط القواعد الأندلسية الكبرى ، بلنسية وقرطبة واشبيلية فما دونها ، وتعرض لما أثارته هذه المحنة فى النفوس من لوعة وأسى ثم قال : « ونظم شاعر العصر أبو البقاء صالح بن شريف الرندى مرثيته الشهيرة التى ما زالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثى القومية وأبلغها تأثيراً فى النفس ، وفيها يبكي قواعد الأندلس الذاهبة ، ويستنهض همم المسلمين أهل العدوة لإنجاد الأندلس وغوثها » ، وساق نص القصيدة بعد ذلك .

وبهذا حدد تاريخ هذا الشاعر والعصر الذى كان يعيش فيه ، ثم زاد ذلك وضوحاً فى التعليق الذى كتبه على القصيدة وقال فيه : « يبدو من سياق القصيدة ، وذكر القواعد الأندلسية التى تبكيها وهى بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة واشبيلية ، وهى التى سقطت كلها فى يد النصارى بين سنتى ٦٣٥ ﻫ و ٦٥٠ ﻫ أن الشاعر قد عاش فى هذا العصر . ومن جهة أخرى فقد ذكر صاحب الذخيرة السنية صراحة أنها نظمت حينما نزل ابن الأحمر للنصارى سنة ٦٦٥ ﻫ عن عدد كبير من القواعد الأندلسية ، وقد كتب صاحب الذخيرة (وهو مؤلف مجهول) مؤلفه فى عصر السلطان أبى سعيد المرينى (٧١٠ — ٧٣٣ ﻫ) وأورد فى كتابه قصيدة أبى البقاء بأكملها ، وهو دليل قاطع على أن ناظمها عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى »(١) وهو تحقيق نفيس جدير بالاعتبار ، ولكن الأستاذ يقول معه : « وقد التبس الأمر على المقرى فى تعيين العصر الذى قيلت فيه هذه القصيدة والذى عاش فيه ناظمها صالح بن شريف فوصفه بأنه خاتمة أدباء الأندلس (أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧) وذكر فى نفح الطيب أن أبياتاً أخرى أضيفت إليها تشتمل على ذكر بسطة وغرناطة

---

(١) أنظر كتاب نهاية الأندلس ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٨

وغيرهما ليست من نظم صاحبها لأنه توفى قبل سقوطها (أى غرناطة) مما يدل على اعتقاد المقرى بأن أبا البقـاء عاش فى أواخر أيام مملكة غرناطة (أواخر القرن التاسع الهجرى) » .

ويزيد هذا الكلام تأكيداً فى الكتاب الرابع حين يعرض للحديث عن أعلام الأدب فى مملكة غرناطة فيقول : « ومنهم أبو البقاء صالح بن شريف الرندى . وكان أديباً شاعراً جزلا . بيد أننا لا نعرف كثيراً عن حياته . ولا نعرف إلا أنه كان من أهل رندة كما يدل على ذلك لقبه . وقد عاش أبو البقاء حسبما رأينا فى بداية هذا الكتاب فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى . وعاصر الفتنة التى تمخضت عن قيام مملكة غرناطة وسقوط معظم القواعد الأندلسية فى يد النصارى . وقال فى المحنة مرثيته الشهيرة التى أتينا على ذكرها فى موضعها ، والتى خلدت ذكره إلى يومنا . . وقد وهم المقرى فاعتقد أنه عاش فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، ووصفه بأنه خاتمة أدباء الأندلس حسبما أسلفنا » .

ويظهر أن الذى حمل الأستاذ عنانا على توهيم المقرى هو وصف هذا الأخير لأبى البقاء بخاتمة أدباء الأندلس ، وليس ضربة لازب أن يكون هذا الوصف دليلا على ما ذكره الأستاذ فإنهم يصفون به فى كل عصر المبرزين من أهل العلم والأدب والفضل فيقولون خاتمة العلماء كما قالوا فى أبى البقاء خاتمة الأدباء ، ويقولون آخر قضاة العدل ولا يلزم أن يكون من قيل فيه ذلك خاتمة أو آخرا بإطلاق . . وإنمـا يلزم هذا الوصف فى شخص واحد هو خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام .

على أن المقرى إنما تبع فى ذلك غيره ، وهو مجرد ناقل فقط . والذى وصف أبا البقاء بذلك الوصف أولا هو ابن عبد الملك المراكشى كما نقله عنه ابن الخطيب فى الإحاطة ، ويأتى نصه قريباً . فهذا دليل على ما قلناه من أن الوصف لا يستلزم معناه بإطلاق ، وإنما المراد به العصر الذى قيل فيه .

ثم إن الأستاذ يرجع الضمير فى قول المقرى عن أبى البقاء أنه توفى قبل سقوطها إلى غرناطة ليعتضد بذلك فى توهيمه أنه كان يعتقد أن أبا البقاء عاش فى أواخر أيام مملكة غرناطة أى فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، وهو تمحل ظاهر . والصواب أن الضمير يعود على بسطة وغرناطة وغيرهما من البلاد التى سقطت بعد وفاة أبى البقاء والتى تضمنتها تلك الأبيات المزيدة على قصيدته لا على خصوص غرناطة لتكون وفاته قبل سقوطها بل قُبَيْله حتى يكون ممن عاش فى أواخر القرن التاسع . وهذا كله لو كانت تلك العبارة التى ساقها الأستاذ هى عبارة المقرى ، كيف وهو قد روى كلامه بالمعنى فتوهم منه ما لا يوهمه وألصقه بالمقرى ، وهو منه برىء .

وهاك نص كلام المقرى فى النفح (ج نى ص ٥٩٥) بعد انشاده لقصيدة أبى البقاء : « انتهت القصيدة الفريدة ، ويوجد بأيدى بعض الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف . وما اعتمدته منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبته . ومن له أدنى ذوق علم أن ما يزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها فى البلاغة . وغالب ظنى أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس ، إذ كان أهلها يستنهضون همم الملوك بالمشرق والمغرب ، فكأن بعضهم لما أعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات ، وقد بينت ذلك فى أزهار الرياض فليراجع » .

وأظن أن هذا كلام واضح لا يوهم شيئاً مما أشار له الأستاذ عنان ، فالقَبْلية الضيقة فى كلامه يقابلها بَعْدية واسعة فى كلام المقرى ، وسبْقُ وفاة أبى البقاء لسقوط غرناطة فحسب ، واقعٌ موقع تأخر سقوطها وسقوط غيرها من البلاد عن موته . بل إن المقرى يجعل أبيات الزيادة إنما قيلت بعد أخذ غرناطة وجميع بلاد الأندلس تتميا لتلك المناحة وإلحاقاً بتلك المرثية ما فاتها ذكره لتأخر زمنه من البلاد الأندلسية الواقعة فى قبضة العدو استنهاضاً لهمم

الملوك فى البلاد الإسلامية عساها تنبعث لاسترجاعها . وهذا إن أوحى بشىء فإنما يوحى بما اهتدى إليه الأستاذ من تحقيق تاريخ حياة الشاعر أبى البقاء الرندى وتعيين عصره الذى هو كما قال النصف الثانى من القرن السابع الهجرى الذى شهد سقوط القواعد الأندلسية الكبرى من اشبيلية وقرطبة وغيرهما لا بسطة وغرناطة وغيرهما .

هذا ويشير العلامة المقرى فى النفح إلى أنه بين تلك الزيادات فى أزهار الرياض . والنسخة المطبوعة التى بأيدينا من هذا الكتاب ليس فيها شىء من ذلك . . وحيث أنه كثيراً ما يقع الكلام على هذه الزيادة فقد أحببت أن أثبتها هنا نقلا عن قطعة مخطوطة متداخلة من أزهار الرياض ومن النفح معا توجد بخزانتنا ضمن مجموع قديم ، وها هى ذى كما ثبتت فيه :

وأين غرناطة دار الجهاد فكم   أسدى الشدى(١) وهم فى الحرب فرسان
وأين حمراؤها العليا وزخرفها   كأنها من جنان الخلد عدنان(٢)
والماء يجرى بساحات القصور بها   قد حف جدولها زهر وريحان
وأين جامعها المشهور كم تليت   فى كل وقت به آى وقرآن
وعالم كان يهدى للجهول هدى   مدرس وله فى العلم تبيان
وعابد خاشع لله مبتهل   والدمع منه على الخدين طوفان
ووادى شلين يحكى فى تحنشه   سيوف هند له(٣) فى الجو لمعان
وأين بسطة دار الزعفران فهل   رأى شبيها(٤) لها فى الحسن انسان
كذا المرية دار الصالحين فكم   قطب بها علم غوث له شان

---

(١) كذا ولعلها أسد الشرى ويبقى المعنى مع ذلك غير تام .
(٢) كذا .
(٣) كذا .
(٤) فى الأصل شبية بالرفع .

وأين مالقةٌ مرسى المراكب كم أرست بساحلها فلك وغربان
وكم بداخلها من شاعر فطن وذى فنون له حذق وتبيان
وكم بخارجها من منزه فرج وجنة حولها زهر وبستان
وأين جارتها الزهرا وقبتها وأين يا قوم أبطال وفرسان
وكم شجاع زعيم فى الوغى بطل بدا له فى العدا فتك وإمعان
كم جدلت يده من كافر فغدا تبكيه من أرضه أهل وولدان
ووادى آش غدت بالعز عامرة ورد توحيدها شرك وطغيان(١)
قواعدكُنَّ أركان البلاد . . . .

هكذا جعل ترتيب هذه الأبيات فى المخطوطة بين قوله : « وأين حمص وما تحويه من نزه » ، وبين هذا البيت « قواعد الخ » .

ومما ثبت فى هذه المخطوطة زيادة بيت أيضاً بين قوله « تلك المصيبة » ، وقوله « يا راكبين » ، وهو مما ألحق فى الطرة كالأبيات قبله ونصه :

يا أيها الملك الحمراء رايته أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا

وفى الختام ألحق بالقصيدة كذلك هذه الأبيات الثلاثة :

هل للجهاد بها من طالب فلقد تزخرفت جنة المأوى بها شان
والشوق للحور والولدان نحوكما(٢) فازت لعمرى بهذا الفضل شجعان
ثم الصلاة على المختار من مضر ما هب ريح الصبا واهتز أغصان

وقد أوردنا هذه الأبيات على علاتها ، ولا أكره إلينا من رواية شعر مكسور وأدب لا هو منظوم ولا منثور للعبرة — ولا أقول للفائدة — التاريخية ، فإنه ما انحطت أدبيات قوم إلا وانحط قدرهم ، وما ضعفت معنوياتهم إلا

---

(١) كذا .
(٢) كذا .

وضعفت مقاومتهم ، وإذاً فلا غرابة أن يكون هذا شعر القوم بعد عجزهم عن الاحتفاظ بتلك الجزيرة الفيحاء . . .

وبعد فقد ترجم لأبى البقاء لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة ترجمة واسعة ، وأثبت من أدبه جملة وافرة ما بين شعر ونثر . وإليك ما قاله فى التعريف به نقلا عن مخطوط الأسكوريال من كتاب الإحاطة الذى يحمل رقم (١٦٧٣) ص ٢٠٧ :

« صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبى القاسم بن على بن شريف ، من أهل رندة يكنى أبا الطيب . (حاله) قال ابن الزبير شاعر مجيد فى المدح والغزل وغير ذلك ، وعنده مشاركة فى الحساب والفرائض ؛ ونظم فى ذلك . وله تواليف أدبية وقصائد زهدية ، وجزء على حديث جبريل عليه السلام ، وغير ذلك مما روى عنه . وكان فى الجملة معدوداً فى أهل الخير وذوى الفضل والدين ، تكرر لقائى إياه . وقد أقام بمالقة أشهرا ، أيام إقرائى ، فكان لا يفارق مجالس إقرائى وأنشدنى كثيراً من شعره . وقال ابن عبد الملك : كان خاتمة الأدباء بالأندلس بارع التصرف فى منظوم الكلام ومنثوره ، فقيهاً حافظاً مرضياً متفنناً فى معارف شتى ، نبيل المقاصد متواضعاً مقتصداً فى أقواله . وله مقامات بديعة فى أغراض شتى ، وكلامه نظماً ونثراً مدون . (مشيخته) روى عن آباء الحسن أبيه والدباج وابن الفخار الشريشى وابن قطرال وأبى الحسين ابن زرقون وأبى القاسم بن الجد . (تواليفه) ألف جزءاً على حديث جبريل ، وتصنيفاً فى الفرائض وأعمالها ، وآخر فى صنعة الشعر سماه الكافى(١) فى علم القوافى . وله كتاب كبير سماه روض الأنس ونزهة النفس . (دخوله غرناطة)

---

(١) ثبت بالطرة فى هذا الموضع من الإحاطة بنفس الخط المكتوبة به ما يلى : « عندى أنه الوافى وعلى ملكى منه نسخة عليها خط المؤلف المترجم به » وبما أن مخطوط الأسكوريال إنما هو مختصر الإحاطة ، وقد أثبتنا فى غير هذا الموضع أن كاتبه هو أبو جعفر البقنى أحد مختصرى الإحاطة ، فيكون كاتب هذه الطرة هو البقنى وبالتالى صاحب المختصر المنقول منه .

وكان كثير الوفادة على غرناطة والتردد إليها يسترفد ملوكها وينشد أمراءها ، والقصيدة التي أولها : « أواصلتي يوما وهاجرتي ألفا » أخبرني شيخنا أبو عبد الله اللّوشي أنه نظمها باقتراح السلطان رحمه الله ، وقد أوعز إليه ألا يخرج عن بعض بساتين الملك حتى يكملها في معارضة محمد بن هانىء الإلبيري (شعره) وهو كثير سهل المأخذ عذب اللفظ رائق المعنى ، غير مؤثر للجزالة » .

هذه هي ترجمته عند ابن الخطيب . وهي تشهد أولا لما حققه الأستاذ عنان من أنه عاش في النصف الثاني من القرن السابع . وتفيد ثانياً أن وصفه بخاتمة الأدباء في الأندلس هو من قول المؤرخ ابن عبد الملك المراكشي فالمقري في ذلك تابع وناقل فقط ، وقد نقله قبله ابن الخطيب ولم يفهم واحد منهما أن ذلك على الإطلاق وأن الأدب في الأندلس انتهى بانتهاء حياة أبي البقاء . ونلاحظ أن اسمه في الإحاطة صالح بن يزيد لا ابن شريف وأن شريفا اسم جده الخامس . . . وذكره في موضع آخر من ترجمته فسماه صالح بن أبي خالد يزيد بن صالح بن شريف بحذف أسماء ثلاثة من أجداده ، وذلك يدل على أنه كان مشتهراً باسم جده شريف كما هو عندنا الآن . . وقد ذكر هو في الباب الواحد والعشرين من الجزء الثاني من كتابه الوافي ، وهو الذي ذكر فيه النوع المسمى بالاطراد من محاسن الشعر وبديعه فقال : « وكتب إلى صاحبنا الوزير الأديب أبو العباس بلال الحريري رحمه الله :

ألمم إذا شئت تحظى بصـــالح وشريف
بصالح بن يزيد بـ ن صالح بن شريف »

فنظم هذا الوزير أسماءه كما ذكرها ابن الخطيب في الأخير ثم نلاحظ قول الإحاطة « ويكنى أبا الطيب » مع أن المعروف عندنا أنه يكنى بأبي البقاء . والواقع أنه في طالعة كتابه الوافي كني بأبي الطيب بن أبي الحسن . . وكذلك ثبتت كنيته أيضاً في أزهار الرياض أما في النفح فكني بأبي البقاء كما هو

الشائع ، وكذلك كنى فى القطعة المخطوطة التى نقلنا عنها الأبيات المزيدة على قصيدته . وكذلك كناه الأستاذ بالنسيا فى كتابه تاريخ الأدب العربى فى اسبانيا(١) ومؤرخ مدينة رندة السنيور ركاينة(٢) . . فيظهر أنه كان له كنيتان ولكن الثانية منهما أشهر وأسير . وكذا الأمر فى والده فإن ابن الخطيب لما ذكره فى جملة شيوخ ولده كناه بأبى الحسن كما كنى فى طالعة كتاب الوافى ، ولما ذكره ثانياً فى تسمية ولده القصيرة كناه بأبى خالد .

ولعل أهم ما يلاحظ فى الترجمة التى له فى الإحاطة أن لسان الدين لم يذكر فيما رواه له من الشعر ، وهو شىء كثير فى الجملة ، قصيدته النونية الشهيرة ، فإما أنه لم يقف عليها وإما أنها لم تثر انتباهه . ولا يقال إنها لم تشتهر إلا مؤخرا ، فقد رأينا أن صاحب الذخيرة السنية قد رواها فى كتابه ، وهو ممن مات قبل ابن الخطيب بنحو من نصف قرن . على أن الشعر الذى رواه له ابن الخطيب يتساوى والنونية نفَساً وصنعةً ، وبعضه مما ضمنه هو كتابه الوافى . ومنه فى وصف الليل من قصيدة سلطانية :

وليل بته كالدهر طولا   تنكر لى وعرَّفه التمام
كأن سماءه روض تحلى   بزَهر الزُّهر والشوق الكمام
كأن البدر تحت الغيم وجه   عليه من ملاحته لثام
كأن الكوكب الدرى كأس   وقد رق الزجاجة والمدام
كأن سطور أفلاك الدرارى   قسى والرجوم لها سهام
كأن مدار قطب بنات نعش   ندىٌّ والنجوم به ندام
كأن بناته الكبرى جوار   جوار ، والسها فيها غلام
كأن بناته الصغرى جمان   على لبَّاتها منها نظام

---

(١) ص ٩٧ وقد نوه بقصيدته النونية وترجم منها بعض الأبيات بالاسبانية ولكنه لم يذكر ترجمة لصاحبنا كأنه لم يقف على ترجمته بالإحاطة .

(٢) ص ١٠٣ حيث ذكره عرضاً مع بعض أدباء هذه المدينة .

كواكب بت أرعاهن حتى   كأني عاشق وهي الذمام
إلى أن مزقت كف الثريا   جُيوبَ الأفق وانجاب الظلام
فما خلت انصداع الفجر إلا   قِرابا يُنتضى منه حسام
وما شبهت وجه الشمس إلا   بوجهك أيها الملك الهمام

ومنه وارتكب فيه النوع المسمى بالتوشيع من البديع :

كيف التخلص من عينيك لي ومتى ؟   وفيهما القاتلان الغنج والحور
وكيف يسلو فؤادي عن صبابته ؟   ولو نهى الناهيان الشيب والكبر
أنت المنى والمنايا فيك قد جمعت   وعندك الحالتان النفع والضرر
ولي من الشوق ما إن⁽¹⁾لا دواء له   وعندك الشافيان القرب والنظر
وفي وصالك ما أبقى به رمقي   لو ساعد المسعدان الدهر والقدر
وكان طيف خيال منك يقنعني   لو يذهب المانعان الدمع والسهر

وهي قصيدة طويلة ، قال ابن الخطيب : ومن قصيدة مُغْرِبة في الإحسان له :

وليلة نبهت أجفانها   والفجر قد فجَّر نهر النهار
والليل كالمهزوم يوم الوغى⁽²⁾   والشهب مثل الشهب عند الفرار
كأنما استخفى السهى خيفة   وطوالب النجم بثار فثار
لذاك ما شابت نواصي الدجي   وطارح النسر أخاه فطار
وفي الثريا قمر سافر   عن غُرَّة غيَّر منها السِّفار
كان عنقوداً بها مائل   إذ صار كالعُرجون عند السرار
كأنها تسبك ديناره   وكفها تدير منه سوار
كأنما الظلمة مظلومة   تحكَّم الفجر عليها فجار

---

(١) سقطت لفظة إن من الأصل وهي لازمة لاقامة الوزن .
(٢) بالأصل : في يوم الوغى ، ولا يخفى أن في هنا زائدة .

كأنما الصبح لمشتاقـــه   إقبال دنيا بعد ذل افتقار
كأنما الشمس وقد أشرقت   وجه أبى عبد الإله استنار

ومنه فى وصف العلم :

وأصفر كالصب فى رونق   تظن به الحب مما نحل
بديع الصفات حديد الشَّباة   يطول الرماح وإن لم يطل
يعبر عما وراء الضمـــير   ويفعل فعل الظبا والذبل

ومنه فى السيف والقلم :

تفاخر السيف فيما قيل والقلم   والفضل بينهما لاشك منقسم
كلاهما شرف لله درهما   وحبذا الخطتان الحُكْم والحِكَم

ومنه فى الخيرى :

وأزرق كمثـــل للسما   فيه لمن ينظر شىء عجيب
شح من الصبح بأنفاســه   كأنما الصبح عليه رقيب
وباح لليـــل بأسراره   لما رأى الليل نهار الأديب

قال ابن الخطيب : وقال من جملة قصائده المطولات التى تفنن فيها رحمه الله :

وغانية يغنى عن العود صوتهــا   وساقية تسقى وساقيـــة تجرى
بحيث يجر النهر ذيـــل مجرة   يرف على حافاتها الزهر كالزهر
وقد هزت الأرواح خضر كتائب   بألوية بيض على قضب سمـــر
رمى قزح نبلا إليهــا فجردت   سيوف سواقيها على دارع النهر
وهبت صبا نجد فجرت غلائلا   تجفف دمع الطل عن وجنة الزهر

كأن بصفح الروض وشى صحيفة وكالألفات القضب والطرس كالنَّوْر (١)
كأن به للأقحوان خواتمـــا مُفَضَّضَةً فيها فصوص من التبر
كأن به للنرجس الغض أعينـــا ترفرف فى أجفانها أدمع القطر
كأن شذا الخـيرى زورة عاشق يرى أن جنح الليل أكتم للسر

وبعد قطع أخرى فى معان مختلفة ، وكلها مثل هذه التى روينا ، عذوبة ألفاظ وسهولة معان ، وصنعة وبديعا ، أتى ابن الخطيب بنموذج من نثره نقلا عن كتابه روضة الأنس وهو رسالة أجاب بها بلديه أبا بكر البرذعى عن مكاتبة أنفذها إليه فى وصف جارية رآها بسوق الرقيق . ثم ختم ترجمته ببيتين من شعره ، مما يكتب على القبر ، يطلب فيهما الدعاء ممن يمر به .

وقد علم مما تقدم فى ترجمته أن من جملة تآليفه كتابا فى صنعة الشعر اسمه الوافى فى نظم القوافى . . وقد وقفت على هذا الكتاب ضمن مجموع من كتب الخزانة العـامة بتطوان يحمل رقم (٤٩١) ويقع فى (٨٣) ورقة من الحجم المتوسط ، من مسطرة (٢٦) سطراً ، وخطه مغربى واضح ، صحيح فى الجملة ، ولم يسم ناسخه نفسه ولا ذكر تاريخ النسخ فى آخره . وجاء فى طالعته بعد البسملة والصلاة على النبى (ص) :

« قال الشيخ الجليل الفقيه القاضى أبو الطيب بن الشيخ الأجل الفقيه المكرم المرحوم أبى الحسن الشريف الرندى رحمه الله تعالى بمنه ونفعنا به »

فإن تصدق هذه التحلية يكن أبو البقاء قد تولى القضاء ، وهو مما لم يذكره ابن الخطيب فى ترجمته . . أما قوله : الشريف ، فليس بصواب ، والصواب ابن شريف . وقد علمت فيما مضى من ترجمته أنه نفزى ، ونفزة قبيلة من البربر قد تنتسب فى حمير ولكنها لا تدعى الشرف بمعناه الخاص . فلا شك أن هذا الوصف محرف عما ذكرنا من اسم جده شريف .

---

(١) بالأصل كالتبر ونظن أن ما أثبتناه هو الصواب .

وهاك قوله فيه بعد الخطبة : « وبعد فإن الأدب جليس ممتع ، وأنيس مقنع ، وخل لا يخل ، وألف لا يمل . . . . . وإلى هذا فإن الشعر ديوان العرب وايوان الأدب وزهرة الكلم وروضة الحكم ، وهو لا محالة محبوب بالطبع ، شهى للسمع ، فطرة الله التى فطر النفوس الفاضلة عليها ، وهدى العقول الكاملة إليها . . . وقد أوردت فى كتابى هذا جملة كافية فى صنعة الشعر لمن أحب أن يأخذ بأزراره ، ويطلع على أسراره ، ويتفنن فى بديعه ، ويتبين سقطه من رفيعه . هذا وإن كان من سلف قد سبق فى هذا المضمار ، وكاد لا يبقى منه إلا كتقدير الاضمار ، فأنت ترى كيف أتى السابق بما أدرك ، ثم أتى اللاحق فنقض واستدرك ، وفى كل شجرة نار ، واستمجد المَرْخ والعَفار . . . . . وسميت كتابى هذا بالوافى ، فى نظم القوافى . وقسمته أربعة أجزاء ، تتضمن ما فيه الإجزاء بحول الله تعالى » .

فاسمه إذاً الوافى لا الكافى كما ذكر فى الإحاطة ، وتقدم ما لاحظ به ناسخها على ذلك فى الطرة .

وإليك محتويات هذه الأجزاء الأربعة على حسب التقسيم الذى قسمها إليه المؤلف . فالجزء الأول فيه أربعة أبواب ، البـاب الأول فى فضل الشعر ومن تكلم به وأثاب عليه . وقد ذكر فيه مدح حسان وكعب بن زهير للنبى (ص) والفرزدق لعلى زين العابدين ووفود الشعراء على عمر بن عبد العزيز ، ثم من تكلم بالشعر من الخلفاء الراشدين وأئمة العلماء وخلفاء بنى العباس وأمراء بنى حمدان وملوك الأندلس وافريقية .

الباب الثانى فى الشعراء وطبقاتهم . وقد جعلهم ثلاثة أصناف ، جاهلى ومخضرم وإسلامى ، ثم الإسلامى ثلاثة أصناف أيضاً مُحْدَث ومولد ثم بعد ذلك كل عصر ينسب إليه أهله .

الباب الثالث فى عمل الشعر وآدابه . وذكر فيه ما يستعان به على قول الشعر والأوقات المناسبة لعمله ، وأخباراً طريفة مما يدخل فى باب البديهة

والاجازة والمماطلة ومن أطرفها خبر الهيثم الإشبيلى : « وكان فى عصرنا أحد الأعاجيب فى هذا الشأن » يعنى البديهة .

الباب الرابع فى أغراض الشعر وآدابه ، كذا ولعلها أبوابه . وحصرها فى ثمانية أنواع ، النسيب والمدح والتهنئة والرثاء والاعتذار والعتاب والذم ، وأورد فى كل نوع منها ما يناسبه من تعريف أو تقسيم ونماذج من أقوال الشعراء المتقدمين عنه والمعاصرين له ، ومن شعره هو بالخصوص . وهاك ما قاله فى تعريف النسيب على سبيل المثال : « النسيب ، للروح نسيب ، وهو ريحانة الأنس ، وسلوانة النفس ، لأنه يستفز ويروق ، ويهز ويشوق ، ولذلك جعلوه صدرا فى المدائح ، وسببا للمنائح كما قال أبو الطيب : إذا كان شعر فالنسيب المقدم » . وبلغ ما أنشده لنفسه فى هذا الباب (٣٢) ما بين قطعة وقصيدة ، مع رسالة تعزية وبعضه مما ورد فى الإحاطة ، وفيه كذلك أشعار طريفة لمعاصريه .

والجزء الثانى ، وهو فى محاسن الشعر وبديعه ، فيه أربعون بابا : الباب الأول فى الابتداء ، الباب الثانى فى الانتهاء ، الباب الثالث فى الاستطراد ، الباب الرابع فى المطابقة ، الباب الخامس فى المقابلة ، الباب السادس فى المناسبة ، الباب السابع فى التشبيه ، الباب الثامن فى الاستعارة ، الباب التاسع فى التخييل ، الباب العاشر فى التفريع ، الباب الحادى عشر فى التوجيه ، الباب الثانى عشر فى التمثيل ، الباب الثالث عشر فى التمثيل ، ويريد به هنا إرسال المثل ، وفيما قبله نوعاً من التشبيه ، الباب الرابع عشر فى التجنيس ، الباب الخامس عشر فى المضارعة ، الباب السادس عشر فى الترديد ، الباب السابع عشر فى التصدير ، الباب الثامن عشر فى الاتباع ، الباب التاسع عشر فى التبديل ، الباب العشرون فى التضمين ، الباب الحادى والعشرون فى الاطراد ، الباب الثانى والعشرون فى التفسير ، الباب الثالث والعشرون فى المبالغة ، الباب الرابع والعشرون فى التتميم ، الباب الخامس والعشرون فى التسهيم ،

الباب السادس والعشرون فى التحرز ، الباب السابع والعشرون فى الالتفات ، الباب الثامن والعشرون فى التحريف ، الباب التاسع والعشرون فى الاستثناء والاستدراك ، الباب الموفى ثلاثين فى القلب ، الباب الحادى والثلاثون فى التصحيف ، الباب الثانى والثلاثون فى الترصيع ، الباب الثالث والثلاثون فى التسجيع ، الباب الرابع والثلاثون فى التسميط ، الباب الخامس والثلاثون فى لزوم ما لا يلزم ، الباب السادس والثلاثون فى التفصيل ، الباب السابع والثلاثون فى التختيم ، الباب الثامن والثلاثون فى الإحالة ، الباب الموفى أربعين فى اللغز .

ويطول بنا الكلام إذا تتبعنا ذكر محتويات هذه الأبواب ، وكلها من أنواع البديع المعروفة ، وإن سمى بعضها بغير ما اشتهر به وقد طرز أبواب هذا الجزء بما يبلغ (٢٠) ما بين قطعة وبيت من شعره . وبأشعار نادرة لمعاصريه .

والجزء الثالث فى عيوب الشعر ، وهى ثلاثة : الاخلال والسرقة والضرورة . وقد تكلم على هذه الأقسام ومثل لها من كلام الشعراء ، قدماء ومحدثين بما لا مزيد عليه من الإحسان . ولم يخص الاخلال بفصل مستقل وإنما جعله تسعة أضرب ثم تكلم عليها واحداً فواحداً ، وأما السرقة فعقد لها ثلاثة فصول الأول فى ضروبها وألقابها ، والثانى فى مراتب الأخذ ، والثالث فيما يشبه السرقة وليس منها ، ثم أتى بفصل فريد فيما يجوز فى الشعر لغير ضرورة ، وهذا الفصل هو آخر هذا الجزء .

والجزء الرابع فى حد الشعر والعروض والقافية . وفيه فصل فى ألقاب البيت الذى (كذا) تختلف باختلاف أحواله . وفصل فى أنواع الشعر وألقابها ، ويعنى بها أوزانه قال : أنواع الشعر أربعة وعشرون خمسة عشر قديمة تكلمت بها العرب وتسعة محدثة ولدها المحدثون . وقد تكلم على الأوزان أو بالحرى البحور القديمة المعروفة ، أعاريضها وضروبها وما يعرض لها من زحاف وعلة ، وختم ذلك بذكر الأجزاء التى يتركب منها كل بحر ، منظومة مع شطر من

عمله يبين فيه اسم الوزن المراد ، وذلك مثل قوله فى الطويل :

ومثل طويل الشعر ما أنا قائل فعولى مفاعلين فعولى مفاعل

إلى آخرها . وهذا النظم مشهور ، وإنما ذكرناه لننبه على أنه من عمله . ثم عقب ذلك بذكر الأوزان المحدثة وهى الوسيط والوسيم والمعتمد والمتئد والمسرد والمطرد والخبب والفريد والعميد . ومضى فى ذكر أجزاء تفاعيلها وأمثلتها على ما سبق له فى البحور الشعرية القديمة . ويلاحظ أنه ذكر الخبب مع الأوزان المحدثة ، وقد علم أن الأخفش استدركه على الخليل وذهب إلى أن العرب تكلمت به فهو إذن من البحور القديمة ويسمى لذلك المستدرك . وبعد هذا وذاك يأتى بفصل فى القافية ثم بآخر فى عيوب الأعاريض والقوافى وبه يختم الكتاب .

ومن هذا العرض السريع لمحتويات الكتاب يعلم أنه كتاب عامر على صغر حجمه ، ويؤخذ منه أن مؤلفه كان على جانب كبير من الثقافة الأدبية ، خصوصاً وأنه كثيراً ما يدلى بنظره فى القضايا التى يعرضها مما يتصل بالذوق والصنعة والنقد بوجه عام ، والميزة التى ينفرد بها هى ما يحتوى عليه من قطع شعرية وقصائد وأبيات للمؤلف ولبعض المعاصرين له من أهل الأدب ، وحكايات عنهم وأخبار ومساجلات تتصل بالموضوع الذى يكون فيه . . فهو لذلك حرى بالنشر إحياء لذكرى مؤلفه ولهذه الفائدة الجليلة .

هذا ويوجد منه نسخة أخرى بقسم المخطوطات فى المكتبة العامة بعاصمة الرباط تحت رقم ٢٩٠ ولم نطلع عليها .

عبد الله كنون